أثر السِّياق في الخطاب الدُّعائيِّ لأئمة أهل البيت -عليهم السَّلام-

م.م.عبَّاس عبد السَّادة شريف

أ.د.حسين عودة هاشم

جامعة البصرة-كليَّة التَّربية للعلوم الإنسانيَّة
قسم اللغة العربية

ملخَّصٌ:

للسِّياق أثرٌ مهمٌّ في بناء الخطاب، وتؤثِّر عناصره في بنية الخطاب الشكليَّة، والمعنويَّة، ويمكن أن يعدَّ السِّياق قانوناً لتحليل الخطاب، وفي هذا البحث ندرس أثر السِّياق في أربعة من أدعية أئمة أهل البيت – عليهم السَّلام – هي: (دعاء كميل للإمام علي – عليه السَّلام –، ودعاء الإمام الحسين – عليه السَّلام– يوم عرفة، ودعاء أبي حمزة الثماليِّ للإمام علي السَّجَّاد – عليه السَّلام –، ودعاء الافتتاح للإمام المهدي – عليه السَّلام –)، وقد درسنا أثر عناصر السِّياق غير اللغويِّ في الأدعية موضع الدِّراسة، وهي: (المرسل، والمتلقي، والحدث المنجز، والزمان، والمكان).

The Impact of Context on Prayer Context of Imams of Ahlul Bayt
(Peace be upon them)

Lecturer Assistant Abbas Abdul-Sada Shareef
Professor Dr. Hussein Oda Hashim-
University of Basrah-College of Education for Human Sciences

Context has an important impact in the construction of the discourse, and its components effect the structure of discourse's spirit and form. The context can be considered a law to analyse the discourse. In this paper we examine the impact of the context in four of the prayers of the Ahlul Bayt (Peace be upon them), which are: (Kumail Doaa by Imam Ali - peace be upon him), Day of Arafa Doaa by Imam Hussein (peace be upon him), Abu Hamza Al-Thumali Doaa by Imam Ali Al-Sajad (peace be upon him), and Al-Iftetah Doaa by Imam Mahdi (peace be upon him). We have studied the impact of non-linguistic context in the prayers under study, namely: (the sender, the recipient, the performed event, the time, the place).

Keywords: (Context-Discourse-Doaa/Prayer-Ahl Al-Bayt)

المقدِّمة:

مرَّت دراسة السياق بمراحل عدَّة بحسب اتجاهات البحث اللغويِّ، وتطوره ابتداءً من دراسة السياق اللغويِّ خاصَّة إلى الانفتاح على العوامل النفسيَّة، والبيئيَّة، والمهيمنات الثقافيَّة ودراسة أثر كلِّ ذلك في إنتاج المعنى، وقد بلغ السياق أعلى مراحل الاهتمام، واتِّساع نطاق البحث على يد التداوليِّين الذين جعلوا السياق الجسر الذي يعبر به البحث في اللغة إلى دراسة ظروف إنتاج الخطاب(١).

ذكر الباحثون تعريفات عدَّة للسياق تتقارب في مضمونها، وتتعدَّد صياغاتها اللغويَّة منها :"**مجموعة الظروف التي تحفُّ فعل التلفظ بموقف الكلام**"(٢)، ويجدر بنا الوقوف على المعنى اللغويِّ للسياق في المعجم العربيَّ، فإنَّ فيه ما ينفعنا في هذا المقام، قال ابن منظور: "**ساق الإبل وغيرها يسوقها سوقاً، وسياقاً.....وقد انساقت الإبل، وتساوقت تساوقاً إذا تتابعت....**"(٣) نجد في هذا النصِّ معنيين للسياق بحسب فاعل السوق، ففي المعنى الأوَّل حيث الفعل في أصله الثلاثيِّ (ساق) نلمح دلالة (التوجيه)، فالسائق هنا عندما يسوق الإبل يوجِّهها تلقاء جهةٍ ما.

أمَّا المعنى الثاني فيتعلَّق بفعلي المطاوعة، والتفاعل (انساق، وتساوق)، ويذكر ابن منظور أنَّ المعنى هنا هو التتابع، ونستخلص من هذا معنيين للسياق:

١. توجيه المعنى بحسب المتكلِّم، والمقاصد التي يبتغيها، ويمكن أن يلحق به هنا المؤثرات الأخرى التي ترافق قصد المتكلِّم كالمتلقيِّ، والحدث، والزمان، والمكان، وغيرها.

٢. التتابع بحسب الخطاب إذ يكون السياق بالنسبة إليه هو تتابع فقراته، واتِّصال مضامينه.

"**يضطلع السياق بأدوار مهمَّة في التفاعل الخطابيِّ، مثل تحديد قصد المرسل، ومرجع العلامات**"(٤)، ويقسَّم على قسمين هما السياق اللغويُّ، وسياق الحال، وإذ يتركزُّ بحث الأوَّل في المؤثرات اللغويَّة التي ترسم خارطة المعنى، يتجِّه الثاني لدراسة الظواهر الخارجيَّة التي تؤثر في معنى الخطاب من خارج اللغة، وسنكِّرز في هذا المبحث على سياق الحال، ونوكل الحديث عن السياق اللغويَّ لمضامين التَّحليل في كلِّ مفاصل الدَّراسة، وشواهدها.

ويتمثَّل سياق الحال –كما ذكرنا آنفاً– بالمؤثرات الَّتي تحكم دلالة الخطاب، وتتشكل في ضوئها بنيته اللغويَّة وهي مؤثرات ليست لغويَّة، فـ"**الخطاب الفعليُّ تتحكم فيه نظم الخطاب التي يشكِّلها المجتمع، وهي مجموعة من الأعراف المرتبطة بالمؤسسات الاجتماعيَّة**"(٥)، ويتكون سياق الحال من عناصر تؤطر المعنى اللغويَّ للملفوظ هي: المرسل، والمتلقي، والحدث المنجز(٦) يضاف إليها عنصرا الزمان، والمكان(٧)، والمعرفة المشتركة بين المتخاطبين(٨). وسنقف بالبحث والتحليل على هذه العناصر في الأدعية المدروسة، وأثرها في بناء المنظومة الخطابيَّة المعنويَّة للدعاء.

أولًا: المرسل:

ويتمثَّل – في الدعاء – بمنتج الخطاب، ومتلقيه الثاني الذي يتحوَّل مرسلًا بالنسبة للمتلقي الأوَّل (الله تعالى) عندما يتلو الدعاء متوجهًا به إليه، والمرسل "**هو الذات المحوريَّة في إنتاج الخطاب؛ لأنَّه هو الَّذي يتلفَّظ به من أجل التعبير عن مقاصد معينة..**"(٩)، يؤثِّر المرسل في دلالة الخطاب، ويؤدِّي دورًا فاعلًا في توجيه المعنى بحسب المقاصد التي يبتغيها، وطبيعته، وموقعه، ولا يمكن الانسياق خلف نظريَّة موت المؤلف، أو إقصاء قصد المرسل لنكون أمام فضاء منفتق من التأويلات التي تضيع المعنى بين شظايا القراءات المتعددة، وتفقد الخطاب ميزته التواصليَّة عندما يتلاشى المعنى في صراع التأويلات، ويضيع قصد المرسل بين القراءات المتزاحمة.

وفي نظرة تأمليّة في الخطابات الدعائيَّة المدروسة نكتشف أثر المرسل، والمنتج في معنى الخطاب، وتعدِّد المعنى بحسب تعدِّد طبيعتيهما، ففي الفقرات التي تصف حال الداعي من التقصير، وتعديد الذنوب يفرض المرسل – سواء كان منتجًا أو متلقياً ثانيًا – أثره في توجيه المعنى، وبيان المراد من تلك الذنوب.

ففي دعاء كميل ورد: "**اللهمَّ اغفر لي الذنوب التي تهتك العصم، اللهمَّ اغفر لي الذنوب التي تنزل النقم، اللهمَّ اغفر لي الذنوب التي تغيِّر النعم، اللهمَّ اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء، اللهمَّ اغفر لي الذنوب التي تنزل البلاء، اللهمَّ اغفر لي كلَّ ذنب أذنبته، وكلَّ خطيئة اخطأتها..**"(١٠) ، وفي دعاء الإمام الحسين – عليه السَّلام – يوم عرفة: "**يا من قلَّ له شكري فلم يحرمني، وعظمت خطيئتي فلم يفضحني، ورآني على**

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية العدد ١ – المجلد ٤٥ – كانون الثاني لسنة ٢٠٢٠

المعاصي فلم يخذلني.....يا إلهي أنا المترف بذنوبي فاغفرها لي."[١١]، وفي دعاء أبي حمزة الثماليِّ: **"والحمد لله الَّذي يحلم عنِّي حتَّى كأنِّي لا ذنب لي"**[١٢]، وفي دعاء الافتتاح: "**اللهمَّ إنَّ عفوك عن ذنبي، وتجاوزك عن خطيئتي، وصفحك عن ظلمي، وسترك على قبيح عملي، وحلمك عن كثير جرمي**"[١٣] تصف هذه الأدعية الذنوب ناسبة إياها للمتكلِّم بالدعاء، وهذا المتكلِّم تارة يكون المرسل (المتلقي الثاني) غير المعصوم فيكون التعبير حقيقيًّاً في الغالب، والمتلقي فيه هو المتلقي الأوَّل، فإنَّنا عندما ندعو الله ونستجير به نقدِّم بين أيدينا ذنوبنا تائبين مستغفرين؛ ليتلطَّف علينا بحلمه، ويغفر لنا، ويتجاوز عن سيئاتنا.

وتارة يكون المتكلِّم بالدعاء هو المنتج، وهنا فرعان للخطاب في هذا المجال، في الأوَّل يكون المتلقي هو المتلقي الثاني فتكون الغاية من الخطاب هنا هي تعليمه كيف يستغفر الله، ويقف في رحبة رحمته معترفاً متذلِّلاً.[١٥]

وفي الفرع الثاني من خطاب المنتج أن يكون المتلقي هو المتلقي الأوَّل، وفي هذا لا يكون القصد المراد من هذه الفقرات هو الحقيقة التي عليها ظاهر الكلام، فلا يكون الأئمة – عليهم السلام – هنا معترفين بذنوب حقيقيَّة صدرت منهم؛ لأنَّ هذا ممتنعٌ لأسباب:

الأوَّل: لم يرد في حياتهم أنَّهم صدرت منهم أعمال مشينة، أو روي عنهم الذنب في شكلٍ من الأشكال، وقد عجز حتَّى أعدائهم أن يفتروا عليهم ذلك، وينجحوا به؛ لسيرتهم العطرة، وطيب سريرتهم التي ملأت الخافقين نورًا، وموعظةً، وإحسانًا.

الثاني: ما نعتقده من عصمتهم – عليهم السلام – وامتناع صدور الذنب من المعصوم؛ لأنَّه حجَّة الله على خلقه، وإذا صدر الذنب من حجَّة الله كيف يكون حجَّة معلِّماً النَّاس؟ .

الثالث: إنَّ معرفتهم الحقيقيَّة بالله، وقربهم منه – تعالى – يجعلهم عارفين بأنَّه – عزَّ وجلَّ – لا يصحُّ التقصير بحقِّه بذنب، ومخالفة أمره، وقد ورد عن رسول الله – صلَّى الله عليه وآله – :"**يا علي ما عرف الله إلَّا أنا وأنت**"[١٥]، وعن أمير المؤمنين – عليه السلام – :"**ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنَّتك، ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك.**"[١٦] ، وفي هذا السياق المتعلِّق بحقيقة المنتج، وقربه من الله – تعالى –

مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية العدد ١ – المجلد ٤٥ – كانون الثاني لسنة ٢٠٢٠

وإدراكه حقيقة – الله سبحانه– حقَّ الإدراك، ومعرفته به معرفة لا يعلمها غير المعصومين – عليهم السلام – فقد ورد عن الرسول – صلى الله عليه وآله – :"**إنَّ لله حقًّا لا يعلمه إلَّا أنا وعلي.**"(١٧).

وانطلاقًا من هذه المعرفة فإنَّ هذا التعبير ليس حقيقيًّا في الذنوب التي يرتكبها غير المعصومين، وإنَّما "**المراد بالذنوب اشتغاله – عليه السلام – بالمباحات..**"(١٨)، وهذا مرتبة عليا من الشعور بالعبوديَّة، ودرجة ناصعة من الإحساس المرهف بالوفاء لصاحب الفضل على الخلق الَّذي أحسن صورهم، وأنعم عليهم بالحياة، فعندما يستشعر الإمام المعصوم – عليه السلام – فضل الله تعالى عليه، ويعلم علم اليقين حقَّ الله عل عباده بما اطَّلع عليه من علم لم يحضَ به غيره، ويعيش الشعور بضرورة ردِّ الفضل، وأداء الحقِّ الإلهي العظيم، وهو يعلم أنَّه لا يؤدي شكر نعمة من نعم الله عليه إلَّا بتوفيق الله لذلك، فقد ورد عن الإمام السجَّاد – عليه السلام – :"**وكيف لي بتحصيل الشكر، وشكري إيَّاك يفتقر إلى شكرٍ، فكلَّما قلت لك الحمد وجب عليَّ لذلك أن أقول لك الحمد**"(١٩)، ويصف الإمام الحسين – عليه السلام – عجز الخلق عن أداء حقِّ الله، وإحصاء نعمه بقوله: "**...لو حاولت واجتهدت مدى الأعصار، والأحقاب لو عمِّرتها أن أؤدي شكر واحدة من أنعمك ما استطعت ذلك إلا بمنِّك الموجب عليَّ شكرًا آنفًا جديدًا، وثناءً طارفًا عتيداً، أجل، ولو حرصت والعادُّون من أنامك أن نحصي مدى إنعامك سالفةً، وآنفةً لما حصرناه عددًا، ولا أحصيناه أبدًا، هيهات انَّى ذلك، وأنت المخبر عن نفسك في كتابك النَّاطق، والنبأ الصادق: {وإن تعدُّوا نعمة الله لا تحصوها.}..**"(٢٠)، ولو وضع أيٌّ منَّا نفسه أمام هكذا شعورٍ تجاه شخصٍ ما ألا يكرِّر عليه عبارات الاعتراف بالتقصير، وينزل نفسه منزلة المخطئين بحقِّه؛ لأنَّه يشعر بعدم قدرته على أداء ذلك الحقِّ، وعجزه عن شكر نعمته؟ فكيف إذا كان ذلك المنعم هو الله – عزَّ، وجلَّ – والشاكر المتكِّلم هو المعصوم الذي بلغ من القرب منه درجة رفيعة، أفلا ينزل نفسه منزلة المذنبين الخطَّائين؟ يقول الشيخ الأردبيليُّ: "**إنَّ الأنبياء، والأئمة – عليهم السَّلام – تكون أوقاتهم مستغرقة بذكر الله، وقلوبهم مشغولة به، وخواطرهم متعلِّقة بالملأ الأعلى، وهم أبدًا في المراقبة .....فهم أبدًا متوجِّهون إليه مقبلون بكليَّتهم عليه، فمتى يخطو عن تلك المرتبة العليا، والمرتبة الرفيعة إلى الاشتغال بالمأكل، والمشرب، والتَّفرغ إلى النِّكاح، وغيره من المباحات عدُّوه ذنبًا، واعتقدوه خطيئةً،**

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٥ – كانون الثاني لسنة ٢٠٢٠

واستغفروا منه، ألا ترى أنَّ بعض أبناء الدنيا لو قعد يأكل، ويشرب، وينكح، وهو بمرأى من سيِّده، ومسمع لكان ملومًا عند النَّاس، ومقصِّرًا فيما يجب عليه من خدمة سيِّده ومالكه، فما ظنَّك بسيِّد السَّادات، ومالك الأملاك.."(٢١)، ويذكر الإمام الحسين – عليه السلام – بذل جهده في ذلك بقوله: "**غير أنِّي أشهد بجدِّي، وجهدي، ومبالغ طاقتي، ووسعي..**"(٢٢) ففي هذا إشارة إلى بذل أقصى الجهد في ذلك، والاعتراف بالعجز الممزوج بالحسرة، والشعور بالتقصير، وبيان لغاية الأئمة – عليهم السلام – من سعيهم، وإنزالهم أنفسهم منزلة المذنبين وفاءً لحقِّ الله، وحسرة على عدم بلوغ المبتغى في شكره بما يساوي فضله.

وممَّا يؤكد هذا أنَّنا نجد الأئمة – عليهم السلام – يذكرون بعد ذلك ما يبيِّن شأنهم، وغايتهم، ففي دعاء كميل :"**...أتسلط النَّار على وجوهٍ خرَّت لعظمتك ساجدة، وعلى ألسنٍ نطقت بتوحيدك صادقة، وبشكرك مادحة، وعلى قلوبٍ اعترفت بإلهيتك محقِّقة، وعلى ضمائر حوت من العلم بك حتَّى صارت خاشعة، وعلى جوارح سعت إلى أوطان تعبُّدك طائعة، وأشارت باستغفارك مذعنة...**"(٢٣) فهل يا ترى تصدر تلك الذنوب العظام من عبد هذا حاله من الله تعالى؟ وهكذا هي سيرته في التقرب إليه، وطاعته؟ والفرق في هذا المقطع من الدعاء بين المنتج، والمرسل هو أنَّ المنتج يفعل كلَّ هذه الأعمال المخلصة على الدوام والاستمرار، فيمتنع اعتراء الذنب سلوكه، وهو دائمٌ على الحال تلك، أمَّا المرسل فيفعل بعضها، ويترك بعضًا وفقًا قربه من الله، وتفرغه لطاعته، وفي أحسن أحوال المرسلِين غير المعصومين إذا صدر منهم كلُّ ذلك فهو ليس دائمًا كما هو عند المعصومين – عليهم السَّلام – .

ويقول الإمام عليٌّ – عليه السلام – :...**.يا ربَّ يا ربَّ يا ربَّ اسألك بحقِّك، وقدسك، وأعظم صفاتك، وأسمائك أن تجعل أوقاتي من اللَّيل، والنَّهار بذكرك معمورة، وأعمالي عندك مقبولة، حتَّى تكون أعمالي، وأورادي كلُّها وردًا واحدًا، وحالي في خدمتك سرمداً..**"(٢٤). وكذلك الإمام الحسين – عليه السلام – يذيِّل الفقرات التي يذكر فيها التقصير، والعجز بقوله – عليه السلام – : "**..واجعلنا شاكرين، ولآلائك ذاكرين..**"(٢٥) فمن هذا كلِّه نستجمع القرائن من كلام المنتج نفسه، ونربطها بواقعه، وسيرته، وحاله الذي يمتنع فيه صدور الذنب منه حقيقةً، فيكون لذلك غرضان:

١. التعليم بلحاظ المتلقي الثاني.

٢. إنزال النَّفس منزلة المذنب لشعوره بالتقصير أمام عظمة الواحد القهَّار الذي عرفه المنتج المعصوم – عليه السلام – حقَّ المعرفة.

ويحتمل ان يكون الإمام – عليهم السَّلام – يقصد ذنوب الأمَّة التي جعله الله حجَّة عليها، فيحمِّل نفسه أخطاءهم رحمةً بهم، وعطفاً.

ومن هذا نلمس بوضوح اثر المنتج في توجيه مقاصد الخطاب، والدور الفاعل لموقعه وطبيعته في تغيير وجهته عن ظاهر اللغة إلى دلالات متوارية خلف الظاهر اللغويِّ، ولعل لذلك انسجامًا مع سياق الخجل من الله – تعالى – الَّذي يعيشه منتج الخطاب.

وفي المخطط الآتي توضيح لذلك:

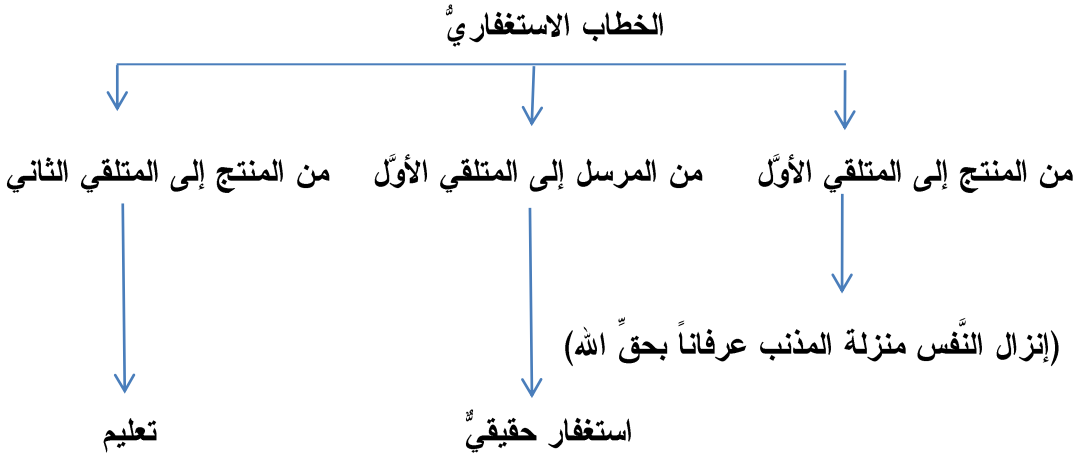

ثانياً: المتلقي:

يمثل المتلقي الطرف الذي تستهدفه رسالة الخطاب، ويصوغ المرسل خطابه بحسب ما يقتضيه إفهام المتلقي، ووهي قضيَّة لا يختلف فيها عاقلان، فيجب مراعاة المتلقي في إعداد الخطاب بغية خلق جوٍّ تواصليٍ فعَّالٍ، وقد ورد عن رسول الله – صلى الله عليه وآله – : "**أُمرنا معاشر الأنبياء أن نخاطب النَاس على قدر عقولهم**"[٢٦]، واللغة العربيَّة غنيَّة بالإشارة إلى مراعاة المتلقي في علومها، وأسس صناعة خطابها، فقد أشار سيبويه إلى ذلك في حديثه عن إضمار (أن) بعد كي، وحتَّى : "**...واكتفوا عن إظهار أنْ بعدهما بعلم**

المخاطَب أنَّ هذين الحرفين لا يضافان إلى فعل، وأنَّهما ليسا ممَّا يعمل بالفعل، وأنَّ الفعل لا يحسن بعدهما إلَّا أن يحمل على أن..."[٢٨] إذ نلحظ أثر علم المخاطَب في توجيه صياغة الكلام. وكذلك قضيَّة (أمن اللبس) التي ترد في كثير من أبواب النّحو العربيِّ، فيكون للمتلقي فيها أثرٌ في بناء الكلام، وإيصال المعنى إليه بصورة واضحة. ونقل الجاحظ عن بشر بن المعتمر قوله: "**ينبغي للمتكلِّم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات فيجعل لكلِّ طبقة من ذلك كلاماً، ولكلِّ حالة من ذلك مقاماً حتَّى يقسِّم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسِّم أقدار المعاني على المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات**"[٢٨].

ولو تأمَّلنا موضوع أضرب الخبر من علم المعاني لوجدنا انَّ المتلقي هو المؤثِّر في صياغة الخبر، والعامل الموجِّه لتوكيده، فعندما يكون المتلقي خالي الذهن من مضمون الخبر يلقى إليه من دون مؤكِّدات، وعندما يعلم المضمون ويتردَّد في قبوله يلقى إليه بمؤكِّدٍ واحدٍ، أمَّا إذا كان المتلقي عالماً بالمضمون، وينكر ذلك جاحدًا فإنَّ الخبر يوجَّه إليه بأكثر من مؤكِّد[٢٩]، وفي كلِّ هذا أثرٌ واضح للمتلقي بوصفه عنصرًا من عناصر سياق الحال في صياغة الخطاب.

ومن القضايا التي يكون للمتلقي فيها أثرٌ في اللغة العربيَّة عامَّة، والخطاب الدعائيِّ خاصَّة قضيَّة أفعال الأمر، فإنَّ لفعل الأمر في العربيَّة ثلاث دلالات هي:

١. الأمر الحقيقيُّ، ويكون من الأعلى للأدنى مرتبة.

٢. الأمر المجازيُّ للالتماس، ويكون بين المتساويين مرتبةً.

٣. الأمر المجازيُّ للدعاء، ويكون من الأدنى إلى الأعلى مرتبةً.

ويكثر ورود فعل الأمر في الأدعية موجَّهاً إلى الله – تعالى – فيكون مجازيًّاً للدعاء، ومن الواضح في هذا اثر المتلقي في توجيه دلالة الخطاب، وانتقالها من الحقيقة إلى المجاز الدعائيِّ، ولكلِ أمر دعائيٍّ دلالة أخرى مع الدعاء كالاسترحام، وغيره، ويلحق بالأمر في كلِّ ذلك النهي.

ويمثِّل المتلقي عنصرًا فاعلًا في سياق الحال للخطاب الدعائيِّ، ولا سيَّما المتلقي الأوَّل الذي ينعكس موقعه

على لغة الخطاب، وصياغة مفرداته وتراكيبه بلغة حذرة عالية التأدُّب، يهيمن عليها التمسكن، والاعتذار، والاعتراف، والتصاغر أمام جلال الله، وعظمته، وللمتلقي الثاني أثر أيضاً في الخطاب الدعائيِّ، وسنقف في السطور الآتية على أثرهما في الخطاب الدعائيِّ المدروس.

ويمكننا الوقوف على ظاهرة ذكر الذنوب نفسها التي وقفنا عليها في موضوع (المرسل)، فلو تأمَّلنا تلك الفقرات الدعائيَّة نجد أنَّ للمتلقي أثرًا أيضًا في صياغة الخطاب، وتحليله، فعندما يتوجَّه المنتج للمتلقي الأوَّل يصوغ خطابه بالأدب العالي، والخلق الرفيع، وينزل نفسه منزلة المقصِّرين المذنبين في جنبه – تعالى – إذ لم يؤدِّ حقَّه كما يليق بسمو قدسه، وعزَّة جلاله، وما دمنا نحلِّل أثر المتلقي في صياغة الخطاب وتحليله فإنَّ إنزال المنتج نفسه منزلة المذنبين – من زاوية تحميل نفسه ذنوب الأمَّة أسفاً على غفلتهم عن حقِّ الله، وجهلهم بما يليق به من الطَّاعة، ورحمةً بهم، وشفقةً عليهم – منظور إليه من وجه خطابه لله – عزَّ وجلَّ – فهو إذ يقبل على ربِّه بالدعاء، والتزلف يستحضر ما يدور حوله من جهالات، وما يصدر من موبقات فيشعر بالخجل أمام هذا الربِّ العظيم الذي عصاه النَّاس المحيطون به، فينتابه الحياء منه – سبحانه – ولا شيء بيده في ذلك المقام إلَّا أن يبادر ليحمِّل نفسه مسؤولية تلك الحال المزرية، وهي طبيعة الكرام ذوي الوفاء عندما يلاقون من يستحق التبجيل وقد أساء إليه بعض متعلِّقيهم. ويكشف لنا هذا أنَّ هذه من عادات العرب الاجتماعيَّة في اعتذار الكبير الكريم عن إساءة قومه، وما زالت ملامح هذه العادة الجميلة مستمرَّة في وقتنا الحاضر إذ يستعمل النَّاس عبارات عامَّيَّة توحي بالاتِّصال بجذور هذا التقليد اللطيف من مكارم الأخلاق فنجد كبار القوم يقولون للمُساء إليه: "**احسبها عليَّ، أو امسحها بوجهي، أو بلحيتي، وقد يجمعون الضمائر فيقولون علينا، وبوجوهنا، وبلحايانا**" .

أمَّا إذا نظرنا للخطاب الدعائيِّ في هذه الظاهرة على أنَّه موجَّهٌ للمتلقي الثاني فإنَّ هذا المتلقي يحمل إلينا غرض التعليم من الخطاب، إذ بالتَّوجه إليه تبرز غاية التعليم من الخطاب.

ومن الجدير بالذكر أنَّ اختلاف الغاية في هذا المقام باختلاف المتلقي لا تعني الاحتمال بينهما المقتضي أن تكون إحداهما صحيحة، وإنَّما هي ميزة إبداعيَّة في الخطاب أن يكون محتملًا أكثر من هدف، ويصحُّ كلاهما

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٥ – كانون الثاني لسنة ٢٠٢٠

في الوقت نفسه. فيمكن أن تكون للعبارة نفسها مواقع معنويَّة عدَّة باختلاف الذَّات الَّتي تتعلَّق بها[٣٠].

ومن القضايا التي ينفرد فيها المتلقي الأوَّل بالخطاب الحمد له، والثناء عليه، فلا يشاركه فيها متلقٍ آخر، فإنَّ الخطاب الدعائيِّ مليء بفقرات الحمد، والثناء لله – تبارك وتعالى – ومنها: "**يا غاية آمال العارفين، يا غياث المستغيثين، يا حبيب قلوب الصادقين، ويا إله العالمين**"[٣١] في دعاء كميل، وفي دعاء عرفة: "....**وهو الجواد الواسع، فطر أجناس البدائع، وأتقن بحكمته الصنائع، لا يخفى عليه الطلائع، ولا تضيع عنده الودائع..**"[٣١]، وفي دعاء أبي حمزة الثماليِّ: "**وأنت المنَّان بالعطيَّات على أهل مملكتك، والعائد عليهم بتحنن رأفتك..**"[٣٣]، وفي دعاء الافتتاح :"**الحمد لله بجميع محامده كلِّها على جميع نعمه كلِّها..**"[٣٤].

ومن آثار المتلقي الأوَّل في الدعاء هيمنة عظمته على الخطاب، وانقطاع الداعي إليه فنجد الخطاب بصيغته الحقيقيَّة النفعيَّة منحصرًا به – عزَّ وجلَّ – فلا متلقي غيره في هذا المقام الذي يطلب فيه الداعي حوائجه، ويجسِّد لنا الإمام السجَّاد – عليه السَّلام – هذا المعنى بقوله: "**الحمد لله الَّذي لا أدعو غيره، ولو دعوت غيره لم يستجب دعائي، والحمد لله الذَّي لا أرجو غيره، ولو رجوت غيره لأخلف رجائي**"[٣٥] ففي هذا الخطاب يوجد مرسل، وهو ينطبق على المنتج، والمتلقي الثاني معًا، ورسالة بؤرة مضمونها الدعاء، والرجاء، وفي موضوع التَّوجه بالدعاء والرجاء يخبرنا الإمام – عليه السَّلام – أنَّ المتلقي الوحيد لهذه الرسالة بهذا المضمون هو الله – عزَّ وجلَّ – فلا متلقيَ غيره يتَّوجه إليه الداعي المخلص بالدعاء، والرجاء، وفي هذا السياق نلمس أثر المتلقي الأوَّل بحصر الخطاب به بهيمنته وعظمته على شعور عبده الداعي، وتمكنِّه من قلبه وجوارحه فصار لا يرى في الكون غيره أحدًا يدعوه، ويرجوه، وهو الذي يغنيه داعيه، ويكفي راجيه.

أمَّا المتلقي الثاني فيوجَّه الخطاب إليه لغرض التعليم، وهذه الغاية نستخلصها بأثر المتلقي الثاني في التحليل، وفي كلِّ ما مضى نلحظ أثر المتلقي في توجيه الغاية من الخطاب.

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٥ – كانون الثاني لسنة ٢٠٢٠

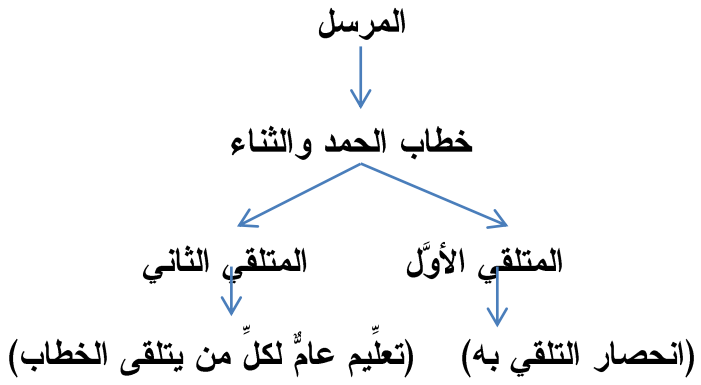

العدد ١ – المجلد ٤٥ – كانون الثاني لسنة ٢٠٢٠

مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية

ثالثًا: الحدث المنجز:

للحدث المنجز أثرٌ في الخطاب، وتحليله من كونه الغرض الَّذي تدور حوله توصيفات الخطاب، وتصاغ لإنجازه لغتُه، يقول الجاحظ: "**لكلِّ ضربٍ من الحديث ضربٌ من اللفظ، ولكلِّ توع من المعاني نوع من الأسماء، فالسخيف للسخيف، والخفيف للخفيف، والجزل لجزل، والإفصاح في موضع الإفصاح، والكناية في موضع الكناية، والاسترسال في موضع الاسترسال**"(٣٦)، ويتضمَّن الدعاء أحداثًا عدَّة بحسب المقام الَّذي يمرُّ به الداعي، ويستذكره في رحلته الدعائيَّة لربِّه الكريم، وليست الأحداث الضمنيَّة في الخطاب الدعائيِّ متقاطعة فيما بينها، أو منقطعة عن الحدث الرئيس فيها، وهو الدعاء، وإنَّما ترتبط ارتباطًا وثيقًا بين بعضها، وتتَّصلُ بالغاية الأساس مع بعضها لتحقيق الغرض الرئيس المتمثِّل بالدعاء.

وقد مرَّ بنا في عنصري (المرسل، والمتلقي) الحديث عن أثرهما في خطاب الاستغفار الَّذي يمثِّل حدثًا من الأحداث التي ينجزها الداعي في خطابه الدعائيِّ العام، وللاستغفار نفسه أثرٌ في الخطاب إذ يستشعر المرسل الغرض منه فيعبِّر عن مشاعره بألفاظ، وتراكيب فيها من الخضوع، والطَّاعة، والخشية ما يناسب الحدث المنجز منها، وهو الاستغفار، فكيف يؤدِّي المستغفر رسالته دون أن يهيِّء لها الأجواء التفاعليَّة المناسبة، ولاسيَّما أنَّنا نتحدث عن الخطاب بوصفه منجزًا تواصليًّا.

وفي حدث منجز آخر من دعاء كميل يقول الإمام عليٌّ – عليه السلام – : "**اللهمَّ إنِّي أتقرب إليك بذكرك، وأستشفع بك إلى نفسك، وأسألك بجودك أن تدنيني من قربك، وأن توزعني شكرك، وأن تلهمني ذكرك**"(٣٧)

وقبل الحديث عن تحليل الحدث المنجز هنا، نعود لأثر المتلقي في هذا السِّياق فالقرب هنا ليس القرب الحقيقيَّ

المادِّيَّ المتمثل بالمكان، أو الذَّات فهو ممتنع من الله – تعالى – وإنَّما هو قرب معنويٌّ من ألطافه ونعمه، والمنزلة الكريمة لديه(٣٨).

أمَّا الحدث المنجز هنا فهو التقرب من الله تعالى، وينجز لغويَّاً بداية الفقرة بالفعل (أتقرب)، وانسياقًا مع هذا الحدث المهمِّ عند الداعي نجد المنتج قد هيَّأ سبل تحقيقه التي نستنبطها من الخطاب، وهي:

١. الافتتاح بنداء الله تعالى باسمه الصريح معظَّمًا بإلحاق الميم به، وهي في هذا الاستعمال نائبة عن حرف النداء(٣٩).

٢. توكيد الخطاب بـــ(إنَّ) تعبيرًا عن الصدق، والجديَّة في الأمر.

٣. يجعل الذكر وسيلة القربى إلى الله، والذكر هنا يشمل عامَّة العبادة، والأذكار التسبيحيَّة(٤٠)، وفي هذا يعطينا الإمام – عليه السَّلام – درساً عمليَّاً في التقرُّب إلى الله – سبحانه – فلا جدوى من ادِّعاء الرغبة في التقرُّب من دون أن يصاحب ذلك خطوة عمليَّة ترضي المتقرَّب إليه، فيقدِّم عبادته، وتسبيحه بين يدي الرغبة في تقرُّبه إلى بارئه تبارك وتعالى.

٤. الاستشفاع للمخاطب بنفسه، إذ يقدِّمه نفسه شفيعاً بالتقرب إليه، وفي هذا إشارة لطيفة إلى أنَّه يستشعر الانقطاع إليه، فكأنَّه – عليه السَّلام – لا يرى غيره فيقدِّمه شفيعاً إليه، أو أنَّه يعلم أنَّ الله هو الأقرب إلى عباده بدلالة قوله تعالى:**{وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ..}** (ق ١٦)، فيستثمر ذلك القرب الإلهي للتقرب إليه – عزَّ وجل –.

٥. بعد ذلك يتقدَّم بالسؤال إلى بارئه – تعالى – بقوله: "**وأسألك بجودك**" ويلحظ هنا أنَّه – عليه السَّلام – يجعل (الجود) وسيلة السؤال وهو تعبير دقيقٌ يناسب مقام الخطاب المتمثِّل بالسؤال.

٦. يختم – عليه السلام – سؤاله بثلاث طلبات هي: "**...أن تدنيني من قربك، وأن توزعني شكرك، وأن تلهمني ذكرك**" والأول منها هو الرئيس المتعلِّق به الحدث، وهو (التقرُّب)، أمَّا الثاني والثالث، وهما الشكر، والذكر فقد جعلهما وسيلتين للحفاظ على ذلك القرب، وزيادته فإنَّ القرب من الله – تعالى – نعمة منه عظيمة تتطلَّب الشكر عليها لتستمرَّ فـــ"**بالشكر تدوم النعم**"، وتزيد تلك النِّعمة إذ يقول تعالى: **{لَئِنْ شَكَرْتُمْ**

لَأَزِيْدَنَّكُمْ} (إبراهيم:٧)، فلم يكتفِ – عليه السَّلام – بطلب القرب من الله – عزَّ وجلَّ – وإنَّما طلب سبيل الحفاظ عليه، ونمائه، فهما تابعان للطلب الرئيس، وبهذا يلهمنا درسًا في طلب النِّعم، وسؤال الحاجات فلا يكفي أن نطلبها مجردَّة، وإنَّما علينا أن نفكر في سبل الحفاظ عليها، وزيادتها، والسعي لذلك أيضاً.

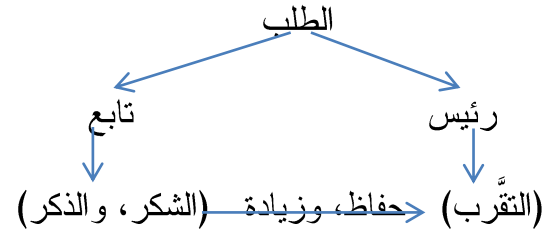

٧. في ذكره – عليه السَّلام – الشكر، والذكر إشارة لطيفة لنوعي الشكر الذكريَّ (باللسان)، والعمليِّ بالعمل.

وفي قول الإمام الحسين – عليه السَّلام – : "**اللهمَّ لا تمكر بي، ولا تستدرجني، ولا تخذلني، وادرأ عنِّي شرَّ فسقة الجنِّ، والإنس، يا أسمع السامعين، ويا أبصر الناظرين، ويا أسرع الحاسبين، ويا أرحم الراحمين..**"[٤١] الحدث المنجز في هذه الفقرة من الدعاء هو سؤال الله بصيغة النهي أن لا يمكر به، والمكر صرف الشخص عن غايته[٤٢] فيطلب الإمام – عليه السَّلام – من ربَّه الكريم أن لا يصرفه عن غايته في القربى إليه، والزلفى عنده، واستدراج الله عبده أن يهنئه بالخيرات وهو في غير طريقه[٤٣] ويلحظ انَّه أردف السؤال بعدم المكر، بالسؤال بعدم الاستدراج، فعدم الخذلان، فمن كانت غايته رضا الله – تعالى – يخشى أن يحول بينه وبين هذه الغاية الاستدراج فهو سبب للمكر به، وسبب الاستدراج الخذلان، والخذلان يقع إذا أصاب ابن آدم شرَّ فسقة الجنِّ، والإنس فيكون مخذولاً إذا هيمن عليه شرُّهم، فجاءت هذه الطلبات توليديَّة متعلَّقة بعضها بسبب بعض، ثمَّ أردف ذلك بندائه – عزَّ وجلَّ – بأسمع السامعين، وأبصر الناظرين تكنية عن كونه عالمًا بكلِّ شيء، ومن كان عالمًا بكلِّ شيء كان الحساب عنده سريعًا فلا حاجة له بالبحث، والتدقيق، ونجده يختم نداءه بقوله: "**ويا أرحم الراحمين**" طالباً بهذا النداء رحمته – سبحانه – ليقول موجزًا إنَّك عالمٌ بكلِّ شيء منِّي، وحسابي عندك يسير سريع، ولكنِّي طامع برحمتك أن تدرأ عنِّي شرَّ الفسقة، فلا أخذل بسببهم، وإن كفيتني الخذلان سلمت من الاستدراج، وإن سلمت من الاستدراج لم يعقني المكر عن الوصول لغايتي فأكون في ساحة عفوك، ورحبة القرب منك، وربيع الدعاء بين يديك.

ونلحظ فيما تقدَّم أنَّ عنصر السياق الحدث المنجز المتمثِّل بطلب عدم المكر قد اقتضى أن يرد في سياقه ما يتعلَّق به من أحداث أخرى، فصار الحدث المركزي، وحوله تتمحور أحداث أخرى تكون سبباً لحصوله، وكلٌّ منها سببٌ لغيره.

ويلحظ في الموضعين السابقين أنَّ الحدث المنجز يكون بداية الفقرة من الخطاب، وفي مواضع أخرى قد يكون في آخرها كما نجد في قول دعاء أبي حمزة الثماليِّ فورد فيه: "**فلو اطَّلع اليوم على ذنبي غيرك ما فعلته، ولو خفت تعجيل العقوبة لاجتنبته، لا لأنَّك أهون النَّاظرين إليَّ، وأخفُّ المطَّلعين عليَّ، بل لأنَّك خير الساترين، وأحلم الأحلمين، وأكرم الأكرمين....**"[٤٤] والحدث المنجز مديح الله – سبحانه – بستره، وحلمه، فيبدأ بذكر الذنب وامتناع الإنسان عن فعله إذا اطَّلع عليه أحدٌ غير الله – تعالى – وقد بدأ الحديث بقوله: "**فلو اطَّلع اليوم على ذنبي غيرك ما فعلته، ولو خفت تعجيل العقوبة لاجتنبته..**" وقد يتبادر إلى الذهن أن الداعي هنا يجعل الله أهون الناظرين إليه، لكنَّه يكسر أفق التوقع في ختام الفقرة إذ يبيِّن إنَّ ذلك اطمئناناً بستر الله – تعالى – وثقة بحلمه – عزَّ وجلَّ – فجاءت هذه الصياغة المحبوكة في التقديم والتأخير في سياق هذا الحدث المنجز، واستعمل فيها أسلوب كسر أفق التوقع لدى المتلقي غير العارف بكلِّ خصائص الدعاء، أمَّا العارف بذلك فيتوقَّع أنَّ هنالك أمرًا ما مهمَّاً.

وفي وصف صبر الله على عباده، وحلمه عن نزق النفوس المستعجلة يقول الإمام المهديُّ – عليه السلام– : "**...فإن أبطأ عنِّي عتبت بجهلي عليك، ولعلَّ الذَي أبطأ عنّي هو خير لي لعلمك بعاقبة الأمور، فلم أرَ مولى كريماً اصبر على عبدٍ لئيمٍ منك عليَّ...**"[٤٥] وقد تسلسلت العبارات هنا ابتداءً من الاعتراف بالجهل بحكمة الله، وحسن تدبيره، وكرمه بعباده[٤٦]، مردفاً ذلك ببيان علَّة الإبطاء بأنَّها لا تخلو من الخير للعبد، ثمَّ التعجب من كرم الله وصبره الَّذي هو نتيجة تلك السلسة من الأحداث التي تنجز في ختامها هذا الحدث فيتحقَّق السياق بعنصره الحدثيِّ. ويرى السيد منير الخبَّاز أنَّ في هذه الفقرة إشارة لضرورة الثقة بالله – تعالى – والإجابة عن شبهة مفادها إنَّ الله – سبحانه – قد وعد باستجابة الدعاء، ولكنَّنا قد ندعو فلا يُستجاب لنا، والعلَّة في ذلك تتمثل بعلمه تعالى بعواقب الأمور، ومصلحة عباده[٤٧].

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٥ – كانون الثاني لسنة ٢٠٢٠

٤.، ٥. الزمان والمكان:

عنصران فاعلان في بناء الخطاب، ومؤثِّران في سياق الحال فهما الفضاء الذي يكتنف الخطاب، ويحتضن رسالته، ولا يخفى ما لهذين العنصرين من أثر في الخطاب، ودلالته فسياق الحال يؤدِّي دورًا فاعلًا في صناعة الرسالة التواصليَّة الخطابيَّة من جانب عنصري الزمان، والمكان، وليس حضورهما فقط يؤثر في الخطاب، وإنَّما لغيابهما أثرٌ في الخطاب أيضًا فقد تقتضي طبيعة الخطاب أن يتجاوز المنتج الزمان والمكان ليدلَّ على شموليَّة الخطاب، وعبوره حدود الزمان والمكان، وتتحكم بذلك طبيعة الخطاب فتارة يكون حضور الزمان، والمكان نافعا للخطاب، وتارة يكون تجاوزهما مناسبة لطبيعة الرسالة التواصليَّة.

ويمكننا الاستفادة من تقنيات التحليل السرديِّ للزمن التي وضعها الناقد الفرنسي (جيرار جينيت) ونطبِّقها على الخطاب الدعائيِّ في مجال عنصر الزمن من السياق، إذ يرى جينيت أنَّ التحليل الزمني ينبني على ثلاث تقنيات منها التأليفات الزمنيَّة بين الاسترجاع، والاستباق للأحداث التي كانت، والَّتي ستقع مستقبلاً [٤٨]. ونلمح تلك المفارقات في بعض مفاصل الخطاب، ففي قول الإمام علي – عليه السلام – من دعاء كميل: "**...ظلمت نفسي، وتجرَّأت بجهلي، وسكنت إلى قديم ذكرك لي، ومنِّك عليَّ، اللهمَّ مولاي كم من قبيح سترته، وكم من فادحٍ من البلاء أقلته، وكم عثار وقيته، وكم من مكروهٍ دفعته، وكم من ثناءٍ جميلٍ لست أهلاً نشرته..**"[٤٩] نجد تقنية الاسترجاع، فبينما يتحدَّث الداعي عن حاله في ظلم نفسه، وتجرؤه بجهله، وسكونه إلى ذكر الله، ومنِّه عليه، يسترجع ما مضى من نعم الله عليه، ويستذكرها استرحامًا، وتعطُّفًا فيقول مخاطبًا ربَّه الكريم: "**كم من قبيح سترته، وكم من فادحٍ من البلاء أقلته، وكم عثار وقيته، وكم من مكروهٍ دفعته، وكم من ثناءٍ جميلٍ لست أهلاً نشرته**" فيسترجع الحال الماضي من رحمة الله به، وهو يعترف الآن بما فعله، ليطلب العفو من ربِّه، وأن لا يقطع عنه تلك الرعاية الربوبيَّة الرحيمة. يقول السيد عزُّ الدِّين بحر العلوم: "**وها هي نعم الله يستعرضها الداعي معترفًا بسبوغها عليه، وتهن مشاعره هذه الذكريات المؤلمة، فيبدأ بتعدادها وهو يناجي ربَّه ليعترف له بأنَّه البادي بالجميل، وتنهمل الدموع ن عينيه، وهو يردِّد هذه الاعترافات..**"[٥٠].

ومن الاسترجاع الزمنيِّ قول الإمام الحسين – عليه السَّلام – :"**ابتدأتني بنعمك قبل أن أكون شيئاً مذكورًا،**

وخلقتني من التراب ثمَّ أسكنتني الأصلاب..."[٥١] إذ يسترجع – عليه السَّلام – ابتداء خلقه، والمراحل الَّتي مرَّ بها منذ أن كان عدمًا، وكلُّ ذلك تعبيرًا عن فضل الله، وسبوغ آلائه.

وفي دعاء أبي حمزة الثماليِّ يسترجع زين العابدين عفو الله – سبحانه وتعالى – عن المذنبين في قوله – عليه السَّلام – : "**.... وإن عفوت فطالما عفوت عن المذنبين قبلي..**"[٥٢].

وفي دعاء الافتتاح نجد استرجاع النعم الإلهيَّة تعبيرًا عن كثرتها، وفضل الله فيها باستعمال (كم) الخبريَّة فيقول: "**فكم من موهبة هنيئة قد أعطاني، وعظيمة مخوفة قد كفاني، وبهجة مونقة قد أراني**"[٥٣].

وفي كلِّ المواضع المذكورة نجد أثر استرجاع الزمن في بنية الخطاب، والانتقال بين الماضي، والحاضر بحسب سياق الحال المقتضي ذكر نعم الله – تعالى – عبده، والاعتراف بفضله.

أمَّا تقنية الاستباق الزمني فنجدها في مواضع ذكر الآخرة، ووصف الحال فيها من الأدعية المدروسة، ففي دعاء كميل: "**يا إلهي، وسيِّدي، وربِّي اتراك معذبي بنارك بعد توحيدك، .....أتسلط النَّار على وجوهٍ خرَّت لعظمتك ساجدة..... فلئن صيَّرتني للعقوبات مع أعدائك، وجمعت بيني وبين أهل بلائك، وفرَّقت بيني وبين أحبَّائك، وأوليائك..... فبعزَّتك يا سيِّدي ومولاي أقسم صادقاً لئن تركتني ناطقاً لأضجَّنَّ إيك بين أهلها ضجيج الآملين، ولأصرخنَّ صراخ المستصرخين، ولأنادينَّك اين كنت يا ولي المؤمنين، يا غاية آمال العارفين، ويا غياث المستغيثين..**"[٥٤] يتحدَّث الداعي في دار الدنيا، وينتقل بفكره لحال الآخرة، وما يجري فيها مستبقًا تلك الأحداث التي وعد ربُّ العالمين حدوثها، ووصف القرآن الكريم مجرياتها.

ويستبق دعاء عرفة أحداث الحساب في يوم القيامة، وشهادة الجوارح على صاحبها، فلا يستطيع الإنكار، ولا حجَّة عنده للجحود فيقول: "**..... ولا حجَّة لي فأحتجُّ بها، ولا قائل لم أعمل سوءًا، وما عسى الجحود لو جحدت – يا مولاي – ينفعني، وكيف، وأنَّى ذلك وجوارحي كلُّها شاهدة عليَّ بما قد عملت يقينًا غير ذي شكٍّ أنَّك سائلي عن عظائم الأمور، وأنَّك الحكيم العدل الّذي لا يجور...**"[٥٥].

ويُغرق الإمام السجَّاد – عليه السَّلام – خطاب التَّوسل بدموع الحبِّ الإلهي الأزليِّ في ذاته، فيستبق الزمن ليعرج من محراب الدعاء إلى عرصات القيامة واصفًا حال الإبعاد يوم الحساب، وردِّه بالحبِّ، والتعلِّق

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٥ – كانون الثاني لسنة ٢٠٢٠

بمعبوده قائلاً: "**إلهي لو قرنتني بالأصفاد، ومنعتني سيبك من بين الأشهاد، ودللت على فضائحي عيون العباد، وأمرت بي إلى النَّار، وحلت بيني وبين الأبرار، ما قطعت رجائي منك، وما صرفت تأميلي للعفو عنك، ولا خرج حبُّك من قلبي، انا لا أنسى أياديك عندي، وسترك عليَّ في دار الدنيا....**"(٥٦) ونلحظ في هذا المقطع من دعاء أبي حمزة الثماليِّ براعة التنقل بالزَّمن في لغة الإمام السجَّاد – عليه السَّلام – فبينما يستبق المستقبل فيقف في عرصات القيامة ليعلن أنَّه لا يتنازل عن حبِّه ربَّه، وحسن ثقته به حتَّى لو عذَّبه، وأدخله النَّار، وفي تلك الأجواء الرهيبة من التصفيد، والفضح، والسير بالسلاسل أمام فوران النَّار وصوت صريرها، يسترجع الماضي وهو يربط حبل أمله بعروة رحمة الله فيستذكر أيادي ربِّه الكريم عليه في دار الدنيا، وستره عليه في ليلها، ونهارها. فما أبرع هذا التَّحوُّل الزمني من حال الدعاء إلى مستقبل الحساب، ثمَّ العودة بالاسترجاع إلى ما قبل حال الدعاء من الستر الرحيم، والنَّعم الإلهيَّة التي منها جلوسه داعياً بين يدي ربِّه اللطيف.

أمَّا في دعاء الافتتاح فيأتي الاستباق المستقبليُّ حاكيًا الوعد الإلهي بأنَّه سيورث الأرض عباده الصالحين، وما نطق به رسوله الكريم – صلى الله عليه وآله – بأنَّ من ذريَّته من يملأ الأرض قسطاً، وعدلاً فيحلِّق الخطاب الدعائيِّ بصيغة طلب لطيف في سماء تلك الأيَّام الموعودة التي تنجلي فيها غبرة الشكِّ، وتشرق شمس اليقين، ويسود الإسلام عزيزًا، وأهله مجللون بكرامة الدنيا، والآخرة، وهو ما نجده في: "**اللهمَّ إنَّا نرغب إليك في دولة كريمة تُعزُّ بها الإسلام، وأهله، وتذل بها النفاق وأهله، وتجعلنا فيها من الدعاء إلى طاعتك، والقادة إلى سبيلك، وترزقنا بها كرامة الدنيا، والآخرة**"(٥٧).

وبعيداً عن تقنيات (جينيت) نجد أثر الزمان، والمكان في تشكيل سياق الحال من الخطاب الدعائيِّ في قول الإمام الحسين – عليه السَّلام – : "**اللهمَّ إليك أقبلنا موقنين، ولبينك الحرام آمِّين قاصدين، فأعنَّا على منسكنا، وأكمل لنَّا حجَّنا، واعفُ اللهمَّ عنَّا فقد مددنا إليك أيدينا وهي بذلَّة الاعتراف موسومة، اللهمَّ فأعطنا في هذه العشيَّة ما سألناك، واكفنا شرَّ ما استكفيناك....**"(٥٨) يستثمر الإمام – عليه السَّلام – في هذا المقطع المكان الَّذي يدعو فيه، ويوظِّف ما لهذا المكان من قدسيَّة، ومكانة عند الله – تعالى – فيقدِّمه بين يدي رجائه،

ويجعله شفيعاً لاستجابة دعائه، ويردف هذا الطلب بذكر الزمان المبارك المدعو فيه، وهو ليلة العيد التي يعلم المسلمون فضلها، فيبتهلون إليه – تعالى – فيها، وبها أن يقضي حوائجهم. فنجد توظيف عنصري الزمان، والمكان في تأثيث سياق الحال وإنتاج خطابٍ توسليٍ يستثمر كرامة المكان، وبركة الزمان لدى المدعو المعظَّم.

والمتأمِّل في دعاء أبي حمزة الثماليِّ يجد أثرًا واضحًا لزمان قراءة الدعاء المتمثِّل بالسحر من شهر رمضان[٥٩] في هيمنة الشُّعور بالتَّفرد بالله، والإحساس بالانقطاع إليه أكثر لدى المتلقي الثاني عندما يكون مرسلًا فقد ضمَّن الإمام زين العابدين – عليه السَّلام – الدعاء فقرات توحي بذلك، ونشدُّ النَّفس إلى الانقطاع عن غير الله ممَّا يحيط بالإنسان.

ومن ذلك أيضاً: "....**بك عرفتك، وأنت دللتني عليك، ولولا أنت لم أدرِ ما أنت..**"[٦٠] فهو يجعل الكون في هذا السَّياق شيئين فقط هما عارف، ومعروف، وقد عرفه دون وسيلة أخرى تكون شيئًا ثالثًا بينهما، وإنَّما كان المعروف هو الوسيلة لعارفه، فلا شيء يراه الداعي في هذا السَّياق غير ربَّه الَّذي تكرَّم عليه بلطفه، ودلَّه على نفسه، وتجلَّى له دون واسطة تعرِّفه به. وفي مقام الرؤية نجده لا يرى غير الذنب من الداعي، والكرم من المدعو فيقول: "..**إذا رأيت مولاي ذنوبي فزعت، وإذا رأيت كلامك طمعت..**"[٦١] فنلمح انحصارًا للموجودات هنا في موجودين هما الداعي المستغفر، والمدعو المطموع بكرمه.

ونلحظ في الخطاب الدعائيِّ المدروس قلَّة ورود المكان المحدَّد إلا ما ورد من ذكر الجنَّة، والنَّار، وكذلك الزمان المحَّدد فلم يرد إلَّا مرَّات قليلة كذكر الليلة، والسَّاعة في دعاء كميل[٦٢]، وقد نقلهما سياق الحال من التحديد إلى العموم الذي يشمل كلَّ ليلة، وكلِّ ساعة يقرأ فيها الدعاء. وكذلك ذكر اللَّيل، والنَّهار مقترنين بالطلب أن يسودهما ذكر الله، والتفرغ إليه، وذلك في دعائي كميل، وأبي حمزة الثماليِّ[٦٣] وهذا التقليل من ذكر الأماكن المحدودة، والأزمنة فيه إشارة لعموم الخطاب الدعائيَّ، وشموله لكلِّ زمان ومكان بمضامينه العالية التي تصلح لمخاطبة الله – تعالى – أنَّى شاء العبد وإن كانت الشريعة قد جعلت استحباب كلٍّ منها بوقت محدَّد، وذلك إكمالاً للفضيلة، وليس تخصيصاً منعاً لغيره من أزمنة، أو أماكن الدعاء.

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٥ – كانون الثاني لسنة ٢٠٢٠

الخاتمة:

يتبيَّن من الدّراسة أنَّ للسيَّاق أثرًا واضحًا في بنية الخطاب وتشكيل مضامينه، وأنَّ الخطاب الدُّعائيَّ ذو لغة معبِّرة، ومضامين عالية تتغاير بتغاير عناصر السَّياق، وأنَّ للخطاب الدُّعائيِّ متلقيين هما الله – تعالى – وكلَّ من يصله الدُّعاء، ولكلٍ منهما أثرٌ في تحوُّل مقص الدّعاء، ووظيفته الخطابيَّة، وأنَّ المتلقي الثاني يصبح مرسلًا إذا تلا الدُعاء.

الهوامش

(١) ينظر: السياق والنَّصِّ الشعريِّ من البنية إلى القراءة، علي آيت أوشتان: ١٦.

(٢) استراتيجيَّات الخطاب، عبد الهادي بن ظافر الشهريُّ: ٤١، ومصدره.

(٣) لسان العرب، ابن منظور: مادَّة (سوق)، ١٠/ ١٦٦.

(٤) استراتيجيَّات الخطاب: ٤٠.

(٥) اللغة والسلطة: ٣٥.

(٦) ينظر: علم النّصِّ، مدخل متداخل الاختصاصات، فان دايك: ١١٩–١٢٠

(٧) ينظر: السياق والنَّصِّ الشعريِّ من البنية إلى القراءة: ١٦–١٧، وينظر: استراتيجيَّات الخطاب: ٤٣.

(٨) ينظر: البحث اللسانيُّ والسيميائيُّ، طه عبد الرحمن: ٣٠٢.

(٩) استراتيجيَّات الخطاب:٤٣.

(١٠) مصباح المتهجِّد: ٥٨٤.

(١١) إقبال الأعمال: ٦٥٦.

(١٢) مصباح المتهجِّد: ٤٠٥.

(١٣) المصدر نفسه: ٤٠٢.

(١٤) ينظر: في رحاب الله، ــضواء على دعاء كميل: ١٣٤.

(١٥) بحار الأنوار، العلَّامة المجلسيُّ: ٨٤/٣٩.

(١٦) بحار الأنوار: ١٤/٤١.

(١٧) الفضائل، ابن شاذان القمّي: ١٤٧.

(١٨) تحفة الأبرار، شرح دعاء الإمام الحسين – عليه السلام – في يوم عرفة بعرفات، شمس الدين النيسابوري:٨٢.

(١٩) الصحيفة السجَّاديَّة الجامعة، الإمام علي بن الحسين السجَّاد –عليه السلام–: ٤١٠.

(٢٠) إقبال الأعمال: ٦٥٣.

(٢١) كشف الغمَّة، العلَّامة الأردبيلي: ٥٤ .

(٢٢) إقبال الأعمال: ٦٥٤.

(٢٣) مصباح المتهجِّد: ٥٨٥ – ٥٨٦.

(٢٤) مصباح المتهجِّد: ٥٨٧.

(٢٥) إقبال الأعمال: ٦٥٨.

(٢٦) بحار الأنوار: ٣٨٤/٢٥.

(٢٧) الكتاب، سيوبيه: ٧/٣.

(٢٨) البيان والتبيين، الجاحظ: ١٣٨/١– ١٣٩.

(٢٩) ينظر: الطراز، علي بن حمزة العلوي: ٢٥٣/٣ – ٢٥٤.

(٣٠) ينظر: ما الخطاب وكيف نحلِّله، د. عبد الواسع الحميري: ٣٢.

(٣١) مصباح المتهجِّد: ٥٨٦.

(٣٢) إقبال الأعمال: ٦٥٢.

(٣٣) مصباح المتهجِّد: ٤٠٦.

(٣٤) المصدر نفسه: ٤٠٢.

(٣٥) المصدر نفسه: ٤٠٥.

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٥ – كانون الثاني لسنة ٢٠٢٠

(٣٦) الحيوان، الجاحظ: ٣٩/٣.

(٣٧) مصباح المتهجِّد: ٥٨٤.

(٣٨) ينظر: اسرار العارفين في شرح كلام مولانا أمير المؤمنين – عليه السلام – ، آية الله السَّيد جعفر السيد محمَّد باقر بحر العلوم : ٢٨٩.

(٣٩) ينظر: معاني القرآن، الفرَّاء: ٢٠٣/١.

(٤٠) ينظر: أسرار العارفين: ٢٨٩ وما بعدها.

(٤١) إقبال الأعمال: ٦٥٩.

(٤٢) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهانيُّ: ٧٧٢.

(٤٣) ينظر: تحفة الأبرار: ١٤٤.

(٤٤) مصباح المتهجِّد: ٤٠٦.

(٤٥) المصدر نفسه: ٤٠٢ – ٤٠٣.

(٤٦) ينظر: شرح دعاء الافتتاح: ٥٨.

(٤٧) ينظر: في ظلال دعاء الافتتاح: ١٣١ وما بعدها.

(٤٨) ينظر: خطاب الحكاية، جيرار جينيت:

(٤٩) مصباح المتهجِّد: ٥٨٥.

(٥٠) في رحاب الدعاء – أضواء على دعاء كميل: ١٩١.

(٥١) إقبال الأعمال: ٦٦٠.

(٥٢) مصباح المتهِّجد: ٤٠٩.

(٥٣) المصدر نفسه: ٤٠٣.

(٥٤) المصدر نفسه: ٥٨٦.

(٥٥) إقبال الأعمال: ٦٥٧.

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٥ – كانون الثاني لسنة ٢٠٢٠

(٥٦) مصباح المتهجِّد: ٤١١.

(٥٧) مصباح المتهجِّد: ٤٠٤.

(٥٨) إقبال الأعمال: ٦٥٩.

(٥٩) ينظر: مصباح المتهجِّد: ٤٠٥.

(٦٠) مصباح المتهجِّد: ٤٠٥.

(٦١) المصدر نفسه: ٤٠٦.

(٦٢) ينظر: المصدر نفسه: ٥٨٧.

(٦٣) ينظر: المصدر نفسه: ٤٠٩، ٥٨٧.

قائمة المصادر

- **استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغويَّة تداوليَّة:** عبد الهادي بن ظافر الشهري، ط١، دار الكتاب الجديد، ٢٠٠٤، بيروت – لبنان.
- **أسرار العارفين في شرح كلام مولانا أمير المؤمنين** – عليه السلام – **– شرح دعاء كميل:** آية الله السَّيد جعفر بحر العلوم، ضبطه، وعلَّق عليه: علي الخراسانيُّ، منشورات المكتبة الحيدريَّة، ط١، ١٤٣٠ هـ.
- **إقبال الأعمال:** السيد ابن طاووس، دار الأعلميِّ، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م.
- **بحار الأنوار:** العلامة المجلسي، مؤسسة الوفاء، بيروت – لبنان .د.ت
- **البيان والتبيين:** عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: محمَّد عبد السَّلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- **تحفة الأبرار شرح دعاء الإمام الحسين – عليه السلام – في يوم عرفة بعرفات:** شمس الدين حسين بن محمَّد الشيرازيُّ، تدوين: الشيخ مصطفى بن إبراهيم القاري التبريزيِّ، تحقيق: الشيخ حسين الواثقيُّ، سلسلة ذخائر الحرمين الشريفين، مطبعة اعتماد، قم المقدَّسة، ط١، ١٤٣٦ هـ – ٢٠١٥ م.
- **الحيوان:** عمرو بن بحر الجاحظ، بتحقيق وشرح: محمَّد عبد السَّلام هارون، مطبعة الخانجي بالقاهرة،

مصر، ط٢، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥.

- **خطاب الحكاية بحثٌ في المنهج:** جيرار جينيت، ترجمة: محمَّد المعتصم، وعبد الجليل الأزديُّ، وعمر حلَّى، المجلس الأعلى للثَّقافة، الهيئة العامَّة للمطابع الأميريَّة، مصر، ط٢، ١٩٩٧ م.
- **السياق والنَّصِّ الشعريِّ من البنية إلى القراءة:** علي آيت أوشتان، دار الثَّقافة للنَّشر والتَّوزيع، الدَّار البيضاء، ط١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م.
- **شرح دعاء الافتتاح:** محمَّد علي اللواتيِّ، مطبعة العنان، ط١، ٢٠١١.
- **الصحيفة السجَّاديَّة الجامعة:** الإمام علي بن الحسين السجَّاد -عليه السلام-، تحقيق ونشر: مؤسَّسة الإمام المهديِّ، برعاية وإشراف: آية الله العظمى السَّيِّد محمَّد باقر الأبطحيِّ الإصفهانيِّ، قم المقدَّسة، ط٤، جمادى الأولى ١٤١٨ هـ.
- **كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز :** يحيى بن حمزة بن إبراهيم العلوي اليمني، دار الكتب الخديويَّة، مطبعة المقتطف - مصر، ١٣٣٣هـ - ١٩١٤م .
- **علم النّصِّ، مدخل متداخل الاختصاصات:** تون ا. فان دايك، ترجمة: د. سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، القاهرة - جمهوريَّة مصر العربيَّة، ط١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.
- **الفضائل:** ابن شاذان القمِّي، ١٣٨١ هـ - ١٩٩٢ م.
- **أضواء على دعاء كميل:** السيد عزُّ الدين بحر العلوم، ط١، دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- **في ظلال دعاء الافتتاح:** محاضرات السيد منير الخبَّاز، ط١، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.
- **الكتاب:** أبو بشر عمرو ابن عثمان ابن قنبر، تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٣، ١٤٠٨ - ١٩٨٨ .
- **كشف الغمَّة في معرفة الأئمة: أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح** الإربلي، تحقيق: علي آل كوثر، مركز الطِّباعة والنَّشر للمجمع العالميُّ لأهل البيت - عليهم السَّلام -، دار التعارف - بيروت،

١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م.

- **لسان العرب:** ابن منظور الأفريقيُّ، دار صادر – بيروت، د.ت.
- **اللغة والسلطة:** نورمان فريكلف، ترجمة: محمَّد عناني، المركز القوميُّ للتَّرجمة، مصر، ط١، ٢٠١٦.
- **ما الخطاب وكيف نحلِّله:** د. عبد الواسع الحميري، مجد المؤسَّسة الجامعيَّة للدِّراسات والنَّشر والتَّوزيع، بيروت، ط٢، ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م.
- **مصباح المتهجِّد:** شيخ الطَّائفة أبو جعفر محمَّد بن الحسن الطوسيُّ، صحَّحه وأشرف على طباعته: فضيلة الشَّيخ حسين الأعلميُّ، منشورات مؤسَّسة الأعلميِّ للمطبوعات، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٨ هـ – ١٩٩٨ م.
- **معاني القرآن:** أبو زكريا يحيى بن زياد الفرَّاء، (ت ٢٠٧هـ) تحقيق : أحمد يوسف نجاتي، محمد علي النجار، دار السرور – سوريا .د.ت.
- **المفردات في غريب القرآن** : أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق وضبط : محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت لبنان .